مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (3)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (3) 2010

نحو موقف موضوعي من التراث العربي

الدكتور عبد الله سيف الدين*

(تاريخ الإيداع 22 / 4 / 2010. قبل للنشر في 15 / 9 / 2010)

□ ملخّص □

احتلت، وما تزال، قضية التراث في الفكر العربي المعاصر مركز الصدارة بالنسبة للمشكلات الثقافية القومية، وذلك نظراً لما تتميز به هذه القضية من خصوصية فريدة، كونها تتناول بعداً أساسياً من أبعاد الهوية العربية؛ وفق ظروف وإمكانيات التموضع الحالي والتوقع المستقبلي للذات العربية؛فاعلية وبنية. من هذا المنطلق تنبعث ضرورة البحث عن موقفٍ موضوعي من التراث العربي، فالأمر لا يتعلق بالأهمية فحسب، بل بالحاجة الملحة أيضاً. لذلك كان هدف البحث هو تحديد مقدار الحاجة الموضوعية لإعادة تناول مشكلة التراث بوصفها ركيزة أساسية من ركائز فهمه أولاً، وتفعيل دوره كأداة لا غنى عنها للنهوض الحضاري في المجتمع العربي، ثانياً.

إن تلك الحاجة هي المولدة حقاً للدافعية التي تحرك بدورها الفاعلية الثقافية للذات العربية كي تستثمر ما لديها من إمكانيات بشكل أفضل في ترسيخ وتأصيل مشروع نهضةٍ معاصرة. وبما يضمن ترسيخ مبادئ أساسية لوعي ذاتي إيجابي يجهد في تجاوز مشكلات الحاضر من أجل مستقبلٍ أكثر إشراقاً وتقدماً.

الكلمات المفتاحية: تراث، موقف، موضوعي، حضاري، أزمة، بُعد.

* مدرس – قسم الفلسفة– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (3)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (3) 2010

Toward an Objective Attitude of Arabic Legacy

Dr. Abdullah Sayf Aldeen*

(Received 22 / 4 / 2010. Accepted 15 / 9 / 2010)

□ ABSTRACT □

The Legacy issue of the contemporary Arabic thought has occupied the forefront, in accordance with the problems of national culture. Arabic Legacy has a unique specialization due to it deals with one of the most essential dimensions of the Arabic Identity. Hence comes the importance of searching about an objective attitude of Arabic Legacy. Therefore, this article is an attempt to limit the amountness of an objective necessity to restudying the problem of legacy and reactivate its role to revive cultural prosperity in the Arabic societies.

Key words: Legacy, Attitude, Objective, Civilization, Crisis, Dimension.

* **assistant prof., department of Philosophy, faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

تتآزر، في تحديد المكانة الحضارية لأمة ما، جملة من الأبعاد المادية والمعنوية ذات الشأن. والتي تحمل طابع الفاعلية الخصبة حضارياً لأبنائها مشيرة إلى الإسهامات والشواهد العينية أو الآثار الراسخة على مختلف الأصعدة. حيث تنتقل وفق آلية التغير الزمني والتأثر الاجتماعي، وبفعل المحاكاة أو التقليد من الخصوصية إلى الشمول أو من الذاتية القومية إلى العمومية الإنسانية وذلك حسب صلاحيتها وجودتها طبعاً.

ويأتي البعد الثقافي في مقدمة تلك الأبعاد، ووفق مبدأ التمايز هو الذي يرسم معالم الهوية الخاصة لتلك الأمة، كما ترسم الجغرافية معالم حدودها الإقليمية على الأرض. وبذلك يمكن القول إن تحول الإرث الثقافي لأمة ما إلى عنصر إنساني حضاري يجعل منه تراثاً إنسانياً عاماً. الأمر الذي يضمن بقاءً معنوياً وثقافياً مخلداً لتلك الأمة رغم زوالها السياسي أو الجغرافي أحياناً، كما هو حال أممٍ كثيرةٍ كالآشورية والبابلية واليونانية والرومانية.... وغيرها.

انطلاقاً من ذلك يمكن تشبيه الحضارة الإنسانية بالنهر العظيم وكل أمةٍ شكلت رافداً أساسياً من روافده الكثيرة عندما كانت لها الريادة الحضارية في مرحلة من مراحل تاريخها. وفي هذا بيان لطرفٍ من الأهمية الموضوعية للتراث وجانب من جوانب ضرورة البحث فيه، ليس فقط على المستوى القومي بل والإنساني أيضاً. وهو ما يفسر عناية رجالات الفكر في كل حضارة بنتاج السابقين سواء كانوا من أسلافهم أم من رجالات الحضارات الأخرى السالفة.

بناءً على ما سبق، سنحاول جهدنا في هذا البحث أن نرسم معالم وجهة نظرنا في التراث العربي من حيث الدلالة والأهمية أولاً، ثم من حيث مسألة الخلاف الفكري وتأزم المواقف من التراث لدى بعض تيارات الفكر العربي المعاصر ثانياً، ثم محاولة عرض نتائج البحث ضمن رؤية فلسفية تزعم الإشارة إلى بعض أبعاد الموقف الموضوعي من التراث العربي وفق منظور حضاري له يعكس الحاجة القومية والجدوى الإنسانية منه ثالثاً.

أهمية البحث وأهدافه:

تنبع أهمية أي بحث فلسفي من أهمية الموضوع الذي يناقشه، ومن جديّة الأفكار التي يطرحها بخصوص ذلك الموضوع. أما موضوع البحث فهو التراث وما يمكن أن يشكله من بعدٍ أساسيٍّ في تكوينِ الهوية المميزة للأمة، وفي رسم معالم إسهامها الحضاري إنسانياً مقارنة بغيرها من الأمم الأخرى. والأهم من ذلك، هو كشف مقدار الفاعلية العبقرية لأبنائها في رفد مشروع الحضارة الإنسانية وإغنائه معرفياً، بشكل يضمن استمرارية انعقاد الأمل عند الأحفاد في إمكانية النهوض مجدداً والقيام بدورٍ مماثلٍ لتجاوز أعباء الحاضر ورسم معالم أكثر إشراقاً للمستقبل. وأهمية هذا البحث تكمن في محاولته لفت الانتباه إلى بعض معالم التراث العربي الحضارية التي يمكن أن تسخر لصالح المشروع الحضاري المنشود عربياً، وذلك ضمن نطاق الوظيفة التنويرية للفلسفة على الصعيدين القومي العربي خصوصاً والإنساني عموماً وفق رؤية منهجية نأمل أن تكون موضوعية بعض الشيء.

منهجية البحث:

أما طريقة البحث فهي تحليلية استنتاجية وقد اقتصرت مبدئياً على اعتماد منهج التحليل الفلسفي النقدي سواء في مناقشة المواقف الفكرية العربية المعاصرة من قضية التراث أو في عرض معالم وأبعاد الموقف الموضوعي والحضاري منه.

أولاً – في سبيل تحديد معنى التراث العربي ودلالته:

التراث لغة مشتق من كلمة الإرث وفعلها الثلاثي (وَرِثَ)، يقول ابن منظور: ((الإرث هو الميراث وهو الأصل، ويقال الإرث في الحسب والوارث في المال.. والإرْثُ: الميراثُ، وأصل الهمزة فيه واو. وعن ابن الأعرابي: الوِرْثُ والإرْثُ و الوِراث والتراثُ، واحدٌ.. ويقال توارثناه، أي ورثه بعضنا عن بعض قدماً..، ويفسر الزَّبيدي كلمة إرث بأنها: نحو استيلاء الشخص على مال وليّه الهالك..))[1]. والملاحظ أن اللغويين القدامى لم يتعرضوا لبيان معنى لفظة (تراث) ذاتها، مع أنها وردت صريحة في قوله تعالى:{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا} [الفجر: 19] مكتفين ببيان مصدر الكلمة فقط، بحيث تصبح كلمة " التراث" مرادفة لكلمة الميراث والنصيب منه، وكلاهما من فعل (أرِثَ) أو (وَرِثَ)[2].

وبذلك يتضح أن التراث في اللغة هو الميراث وهما بالأصل من الإرث، ولكن مع فارق بالمعنى ناتج عن الاستخدام والدلالة الاصطلاحية في غالبية كتاباتنا المعاصرة، فالبعض يرى أن ((التراث هو كل إرثٍ جمعيّ، والميراث هو كل إرثٍ فرديّ))[3]. ويؤكد آخر، وبما يخص التراث العربي تحديداً، أنه قد ((اصطلح أهل البحث في التراث، على أن هذه اللفظة تشير إلى النتاج الحضاري للأمة العربية و الإسلامية خلال عمرها الممتد عبر القرون، فيقال التراث العلمي لإسهامات العلماء العرب في فروع العلم.. وقد تتخصص اللفظة فيقال التراث الكلامي.. أو التراث العثماني..))[4] مثلاً.

ونجد في الموسوعة الفلسفية العربية ما يحدد تقريباً الدلالة الاصطلاحية لمفهوم التراث بالمعنى الذي ننوي استخدامه في هذا البحث، حيث ورد ما نصه: ((التراث بوصفه اصطلاحاً اجتماعياً يتحدد بالسمات الحضارية والاجتماعية لأمة من الأمم.. وبوصفه تراكماً حضارياً وثقافياً عبر الأجيال والقرون يتضمن العناصر المادية والمعنوية للحضارة، كالمعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والصناعات.. وكل ما يكتسبه الإنسان في المجتمع من سلوك متعلم قائم على الخبرة والتجارب والأفكار المتراكمة عبر العصور، والتي تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق اللغة والتقليد والمحاكاة))[5]. ونحن نعزم على اعتماد هذه الدلالة الاصطلاحية للتراث لأننا نرى فيها توافقاً مع الأصل اللغوي للمصطلح وإنصافاً مبدئياً للتراث يتجاوز لحدٍ ما النظرات الإيديولوجية والجزئية والمزاجية المشوهة له أحياناً.

ولما كان التراث متعلقاً أصلاً بالماضي من حيث لحظة الوجود الزمني ومرتبط به من حيث الدلالة المعنوية وكونه أساساً نتاج فاعلية الأسلاف ونشاطهم الفريد عبر تاريخهم المنجز..، لذلك نستنتج منطقياً أن التراث هو حتماً نتاج الماضي بعمومه. أي كل ما له قيمة حضارية ومرت لحظة إنجازه وفنيت حسياً الذات التي كانت سبباً فيه فهو تراث، دون النظر إلى المدة الفاصلة بيننا وبينها، لأن الزمان استمرارية متواصلة. فليست العبرة أو القيمة لكل ما هو ماضٍ أو من الماضي، بل إن العبرة لكل ما له قيمته حضارياً(مادي أو معنوي) وقد أنجزه الإنسان في الماضي..!

وهذا الارتباط باللحظة الزمانية الماضية وبالفاعلية الإنسانية للذات التي أبدعت ما أبدعت قديماً وفي سياق ظروفها الاجتماعية الخاصة، يسمح لنا أن نؤكد على أن التراث على أي شكل أو مستوى كان فإنما هو إنجاز إنساني أولاً وأخيراً. لذلك واستجابة للموضوعية وعدم الشطط، فإننا نشير إلى أنه لا يهمنا في هذا البحث إلاّ التراث العربي

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة أرث.

2- انظر: القرآن الكريم، سورة الفجر، الآية رقم ((19))، ورد هذا المعنى في تفسير الجلالين.

3- السيد أحمد، عزت، قضايا الفكر العربي المعاصر، جامعة تشرين، اللاذقية، 2008م، ص180.

4- الموقع الالكتروني للدكتور يوسف زيدان للتراث والمخطوطات، محاضرة ((التراث العربي من التثقيف إلى المثاقفة)). ص8.

5- الموسوعة الفلسفية، معهد الإنماء العربي، بيروت، م1، 1986م، مادة ((تراث)) ص245.

بوصفه إنجازاً إنسانياً حصراً، ونعني بذلك أن الإنسان هو الذي أبدعه قديماً وهو الذي ورَّثه وهو الذي ورِثَه، فهو المبدع والمورِّث والوارث في كل الأحوال وعلى كل الأصعدة.

وبذلك نتفق من حيث المبدأ مع من يقول: ((لا تراث إلاَّ ما هو عرضي إنساني زماني، ولا مورّث إلاّ ويكون عرضياً، إنسانياً، زمانياً. وهذا يعني أنه لا مدخلاً ذاتياً للأمور الإلهية في دائرة التراث..))[6].

فالله سبحانه وتعالى لا وراثة بينه وبين أحد من خلقه، وإننا لنفهم معنى التوريث في قوله تعالى: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ} [الدخان : 28][7]. على أنه إشارة إلى تصريف الأمور بمقتض حكمته وعلمه ووفق مشيئته سبحانه على الإطلاقية العامة، فهو استخلاف أو استبدال لقوم مكان قومٍ آخرين فيما هو ملك لله وحده. وهذا يوافق برأينا قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ} [آل عمران : 26][8]. ثم مبدأ التوريث والإرث ذاته وبالتالي التراث بالمعنى الذي نبحث فيه يشير لانعدام إرادة وفاعلية المورِّثْ في الموروث، أما الوارث فيفترض أن ملكيته للموروث توفر له حرية القبول أو الرفض(التصرف بمعنى ما) وقد يترتب عليه حقوق وواجبات معاً تجاه الأسلاف وتراثهم. وهذا ما تعكسه أصلاً الأقوال والمواقف من قضية التراث في الفكر العربي الحديث والمعاصر.

انطلاقاً من التحديد السابق للتراث فإننا نعتبر أن إقحام الوحي الإلهي في مسألة التراث العربي لا مبرر له. إذ لا يمكن اعتبار القرآن الكريم والحديث الشريف موروثاً أو من التراث العربي. لأنه وإضافة لكل ما سبق، نجد في الخطاب القرآني نفسه رسالة موجهة إلى الناس جميعاً، للمسلمين وللمؤمنين وكذلك للكافرين.. وغيرهم بإطلاق ولم يوجه أبداً للعرب خاصة، وكذلك الحديث الشريف إلاّ ما ندر وأفاد الخصوصية أو الظرفية.. وإن نزول القرآن الكريم باللغة العربية وكون النبي (صلى الله عليه وسلم) عربي الانتماء والحديث، لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً، لأن اللغة هنا لا تعدُو أن تكون أكثر من أداة أو وسيلة تم اختيارها لأسباب يخرج ذكرها عن نطاق بحثنا هنا.

يترتب على ذلك أن ((العلم والتقنية والقيم الخلقية والجمالية هي الوجوه الإنسانية للتراث، وهي العناصر العامة الرئيسية التي يورثها الإنسان للإنسان، في المكان والزمان))[9]. فالتراث العربي يشتمل أساساً على القيم العربية والعلوم والصناعات التي ورثناها كعرب عن أسلافنا، مما يؤكد على أن العلاقة التي يفترض بعض مفكرينا المعاصرين وجودها بين المقدس(الوحي تحديداً) وبين التراث العربي حتى في وجهه الديني (نتاج الإنسان حول ذلك الوحي كعلوم القرآن مثلاً..) لا وجود لها. وبالتالي فإن تولي فريق ما الدفاع عنها (الأصولي) وآخر نقدها (الحداثي) ليس لها مبرر موضوعي ، لأن هذه العلاقة – كما يبدو لنا – مصطنعة من قبل البعض ومتوهمة من قبل البعض الآخر، وإن مواقفهم في أغلب الأحيان قد اتخذت بالنهاية انطلاقاً من قيم وأهداف. أيديولوجية مفرطة ومغرضة..!

وما تجدر ملاحظته أو التأكيد عليه، هو أن ذلك الإخراج للمقدس من دائرة التراث العربي يجب ألاّ يعتبر إقلالاً من شأن المقدس ولا إنكاراً لأثره الفعال والمباشر في مختلف جوانب ذلك التراث وغالبية محتواه، بل وعلى العكس تماماً، فإننا نرى في هذا الإخراج رفعاً لشأن المقدس، وإنزلاً له في المنزلة المناسبة تماماً، وذلك استجابة لمنطلقات وحاجات البحث الموضوعي، إذ لا يمكن لنا أن ندعي الموضوعية ونتحدث عن المطلق والمقدس على أنه موروث

6 – جدعان، فهمي، نظرية التراث، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 1985م، ص17.

7– سورة الدخان، الآية((29)).

8– سورة آل عمران، الآية((26)).

9– جدعان، فهمي، نظرية التراث، مرجع سبق ذكره،ص17.

عربي أو أنه منتج إنساني. وبالتالي يناله ما ينال كل نشاط إنساني نسبي من التوصيف أو النقد.. وغيره، مما قد يثير الضغائن ويُقلّب الرأي العام أو يؤجج عواطف الجمهور بلا فائدة فيحرف البحث عن أهدافه وينزل به إلى مستوى الادعاءات والاتهامات الرخيصة، وهو للأسف ما تزخر به كتابات وأبحاث ثلة من أنصار مختلف تيارات الفكر العربي المعاصر.

وبالنتيجة نستطيع أن نحدد التراث العربي بمعناه الأشمل على أنه كل ما تم إنجازه فعلاً من مختلف أشكال التعبير(الفكري والأدبي والفني والتقني.. وحتى الشعبي) الشفهي والمدون، وتلك الصنوف الثقافية التي تشير للفاعلية الحضارية للذات العربية عبر فترات زمانية ماضية وظروف اجتماعية – إنسانية متباينة، وتشكل مجتمعة بعداً أساسياً من أبعاد ملامحنا أو هويتنا العربية المعاصر قومياً وثقافياً.

وقد وجدت لهذا التراث قراءات متعددة ومتباينة، تبعاً للنظم الفكرية المؤطرة للقراء وللباحثين من جهة، وتبعاً للمناهج المعتمدة من قبلهم وللأوضاع الاجتماعية – الاقتصادية لمجتمعاتهم ولظروف الحقب التاريخية التي وجدوا فيها من جهة أخرى، رغم احتفاظ تلك القراءات أحياناً ببعض العناصر والسمات المشتركة. فما هي أبرز تلك القراءات المعاصرة–طبعاً – وما هي أبرز أبعادها، يا ترى؟!

النتائج والمناقشة:

ثانياً– التراث العربي وأزمة المواقف الفكرية المعاصرة منه:

لا نبغي هنا عرض وجهات نظر رجالات الفكر العربي المعاصر على اختلاف مشاربهم من قضية التراث، إنما ستكون محاولتنا موجزة ومقتصرة على الأبعاد أو الأسس العامة والنتائج النهائية لمواقف بعض أبرز تيارات الفكر العربي المعاصر في نسقها العام من حيث التباين الجذري في القبول أو الرفض. ذلك التباين الذي شمل مختلف مجالات التراث العربي وموضوعاته وكان على مختلف الأصعدة (سياسية وفكرية واجتماعية..) لدرجة جعلت الغموض يعتري تلك القضية، والتأزم يسم مواقف الكثيرين فيها، حتى توهم البعض أن التراث العربي هو الذي تكتنفه أزمة ذاتية..!.

فالأزمة فعلاً موجودة ، لكنها أزمة موقف من التراث وليست أزمة تراث، والفرق شاسع بين هذا وذاك..!

إن مواقفنا من تراثنا العربي تعكس في غالبيتها من التخبط والحيرة ما يُبقى الأبواب مفتوحة أمام كل الاحتمالات، والأفق عرضة لكل التوقعات وبمختلف الصور المشرقة منها والقاتمة. وذلك الحال يعود أصلاً لعوامل كثيرة يمكن ردها إجمالاً إلى كون مواقفنا أساساً تصدر عن رؤى شمولية لكل من ماضينا وحاضر الآخر قياساً بحاضرنا وماضي الآخر وهو الغرب الأوربي غالباً. تلك الرؤى اللاموضوعية والمغالية لدرجة التعصب أحياناً، حيث يبالغ بعضها في تقديس الماضي العربي ممثلاً بالتراث الإسلامي مقابل رفض الاعتراف بتفوق حاضر الآخر – على الأقل من الناحية الثقافية – منطلقاً من صورة ماضيه القاتمة وثباتها في المخيلة..!

ويبالغ بعضٌ آخر في جلد الذات العربية لدرجة التضحية بها (تراثاً وفاعلية..) على مذابح الصنم الحضاري الأوربي الأوحد برأيه، مستبدلاً كل ما لديها ببعض ما لديه ولو على مستوى الفتات، ومنطلقاً من حال يشبه قنوط المنتحر في آلامه وأحلامه..!

ذلك برأينا مصدر التأزم، وهذا ليس على مستوى المواقف من التراث فقط، بل هو شأن كلّ ما تزخر به ساحتنا الثقافية من مقولات حضارية أو مسائل فكرية وسياسية اجتماعية تقريباً. لكن وأمام خصوصية المسألة التراثية لدينا نحن

العرب و((قد شكلنا التراث تاريخياً وصاغ كياناتنا على هذا النحو أو ذاك، فأصبحنا به أحراراً أو له عبيداً. وما من خطوٍ كبيرٍ نريد أن نخطوه، أو سياسة رئيسة نريد أن نخطها إلا ويفرضان علينا، بقدر يسير أوبقدر غير يسير، موقفاً من التراث، أو في التراث، صريحاً أو ضمنياً))[10].

وفق هذا المستوى من الفهم لأثر التراث العربي الإسلامي في قولبة الفاعلية الحضارية للذات العربية المثقفة وغيرها، على صعيد كلٍّ من الفرد والمجتمع تجسدت تلك المواقف من التراث وتعددت فيه ومنه.

لكنها جميعاً تقريباً – وعلى اختلاف ألوانها – لم تخرج عن نطاق التأزم ومنطقه، إذ أنه وعبر((تناقض التفكير ما بين الماضي والمستقبل يبرز التاريخ[تاريخنا طبعاً] كفردوس مفقود، وتظهر في المقابل اليوتوبيا الغربية كقوة طاغية تحاول تحطيم آخر بناءٍ فكري لتراثٍ ما زلنا نعيش تفاصليه..))[11]. ويظهر كل هذا وذاك على الرغم من قدم طرح قضية التراث فوق طاولة الحوار الفعلي للفكر العربي حديثه ومعاصره على السواء، من جهة. ورغم ما يزخر به محتوى ذلك التراث من غنى وعمقٍ حضاري قياساً بالمرحلة الزمنية التي تخصه من الماضي(التي أنجز بها) ومقارنة بفقر الحاضر العربي وسطحيته من جهة أخرى. فالأزمة الحقيقية التي تعتري غالبية مواقفنا من قضية التراث العربي اليوم تتمثل أساساً في ((امتلاكنا لتيارين متناقضين: الأول يسحبنا نحو الماضي كقوة طاغية شكلت شخصيتنا الثقافية، والثاني :توصيف لم ينته بعد لتراثنا بدأ مع حركة الاستشراق، ويستمر اليوم مع حملة مكافحة الإرهاب)).[12]

هكذا وفي ظل مناخ دولي ضاغط باستمرار وعلى مختلف المستويات، وآخر محلي بدا كردات فعل متشنجة تارة ومتساهلة لدرجة التفريط أخرى، كان البحث عن سمات تمايز الذات عن الآخر والتمسك بخصوصيتها الحضارية عربياً ليس أمراً ملحاً فقط، بل وضرورياً لدرجة تصبح معها الأبواب مفتوحة على مصراعيها أمام جميع المواقف حتى المتعصبة(دينياً وسياسياً وإقليمياً) منها. الأمر الذي أكسب مشروعية – صورية على أقل تقدير – لجميع الطروحات الفكرية المتباينة، حتى وإن وصل تباينها لدرجة التناقض أحيانا. وهو ما مكن جميع الآراء والمواقف في قضية التراث العربي وغيرها من التبرير أو الدلالة وانطلاقا من معطيات الواقع على صحة مواقفها وأهّلها لأن تستقطب الأنصار من داخل المجتمع العربي وخارجه ،سواء على مستوى الدعم المالي أو على مستوى التنفيذ الفعلي لأهدافها حتى وإن كانت غاية في التطرف والعدوانية. وقد أدى ذلك جملة إلى انحسار الاعتدال والوسطية وتراجع الموضوعية عند غالبية المفكرين العرب المعاصرين. ليس فقط في مواقفهم من التراث العربي بل من جميع القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية التي تعنون الساحة الثقافية العربية. حتى يمكن القول: ((بأن مواقفنا من التراث العربي – الإسلامي قد تاهت على مدار العقود الماضية بين مفاهيم السلفية[سواء] التي استخدمت منهج التقديس والتقليد الأعمى[للسلف أو الغرب على حد سواء]، من ناحية. وبين نهج الرفض والاستهانة والاستخفاف[بالتراث أو بمعطيات الحضارة المعاصرة على حد سواء] من ناحية ثانية. إضافة إلى العديد من المواقف الانتهازية والانتقائية والتجزيئية التي توزعت تبعاً للنظم الفكرية(والسياسية) والمصالح الآنية والذاتية. وفي هذه المتاهة ضاع التراث وفقد الكثير من قيمته ودوره [عربياً وإنسانياً] ..!!)).[13]

10– جدعان، فهمي، نظرية التراث، مرجع سابق ، ص13.

11– بلال، مازن، أزمة التفكير التراثي ، الأولى للنشر والتوزيع، دمشق،ط1،2003م،ص5.

12– المرجع نفسه، ص6.

13– جريدة قاسيون الالكترونية، قراءة في بندلي جوزي(3)، عودة إلى التراث، 8/3/2009.

لهذا بدا إخفاق الكثير من الطروحات الفكرية واضحاً، ليس فقط في إيجاد منهج موضوعي لفهم التراث وتحديد آلية انتقاله وكيفية ذلك الانتقال، بل أيضاً في توفير حتى القناعة(عند البعض) في إمكانية توظيفه كلاً أو جزءاً لصالح الحاضر والمستقبل. سواء على مستوى دعم الفاعلية الحضارية للأمة العربية أو حتى على مستوى الهوية الثقافية لتلك الذات التي كانت فاعلة يوماً ما وانحسر فعلها اليوم لأسباب خارجية في غالبيتها دون تبرئة الداخل، على غرار ما فعلته بعض الأمم الأخرى تجاه تراثها الخاص كالأوربية واليابانية والهندية.. وغيرها. مما جعل ذلك التراث محل تساؤل مربك فكرياً، لا من حيث القيمة الحضارية لمحتواه وحيوية ذلك المحتوى فحسب، بل من حيث جدوى الالتزام بنقله وكيفية الاهتمام به..، حتى وصل الأمر لاختلاف الفرقاء في المكان الذي يمكن أن يضعوه فيه؟!

فالمجتمع العربي اليوم وعلى اختلاف أقطاره، مازال ومنذ نهاية الربع الأول من القرن العشرين يكابد وبنسب متفاوتة ركوداً حضارياً مركب البنية تعكسه صورة الواقع المعقد والمستمر انحداراً بفعل انجذابه لجملة من عوامل التراخي العام وعلى رأسها الوعي المغلوط الذي ما تزال تصوغه معاناتهم لبؤسينّ معقدين بآن واحد، عبر عنهما أحدهم بقوله: ((أولهما:بؤس التشبث [المرضي] بما سلف من بنيات التراث الفكري والثقافي و المعتقدي والأسطوري والطقسي.. وثانيهما: بؤس التقليد الآلي لمنتجات حضارات الغير البراني بكل ما تحوي المنتجات من معان))[14]!!

وفق ذلك المستوى من البؤس العام وبفعل منحى المغالاة أو التطرف الحدي،لم تتعدد مواقف ورؤى المفكرين المعاصرين في قضية التراث العربي فحسب، بل تضادت. والضدان وفق قوانين تقابل القضايا في المنطق الصوري ((لا يصدقان معاً ولكن قد يكذبان)) وهذا التضاد حال طبعا دون التكامل ودون تحقيق الفائدة المرجوة من جلّ تلك الرؤى والقراءات الشمولية. فكان تعدداً سلبياً مفرقاً من جهة، ووبالاً على التراث والمعنيين به من جهة أخرى، بدلا من أن يغنيه ويصقله ويوظفه بموضوعية في تجاوز بؤس الواقع وفي تحقيق مستقبل أفضل لأصحابه..!

ثالثاً– أبعاد الموقف الموضوعي من التراث العربي:

يتحدد أي نشاط إنساني جاد بالحاجة الملحة المولدة للدافعية من جهة، وبالهدف الكامن خلف تلك الحاجة، من جهة أخرى. لكن الواقعية تفترض الربط الموضوعي بين الحاجات والإمكانيات . ذلك لأن الوعي الفعلي (الحقيقي) للحاجة لا يسهل عملية قضائها فحسب، بل يضمن الاستخدام الأمثل للإمكانيات المتاحة والاقتراب أكثر من تحقيق جملة الأهداف المتوقفة عليها.

انطلاقا من ذلك، وعلى اعتبار أن الموضوعية هي بالأصل ممثلة للحياد العلمي ومحاولة للتجرد أو الابتعاد عن الأغراض الشخصية والاتجاهات الأيديولوجية، وهي بذلك شرط أساسي من شروط العلمية، فإننا نستطيع توصيف أبعاد الموقف الموضوعي من التراث العربي على أنها يفترض أن ترد أساساً إلى ثلاثة أنواع من الوعي هي على التوالي وعي الحاجة ثم وعي الإمكانيات ثم وعي الهدف.

وهذه الأنواع الثلاثة للوعي التراثي متلازمة ومتسايرة، وقبل ذلك متكاملة. فالمريض على سبيل المثال هدفه الشفاء وحاجته تتمثل في الدواء وذلك متوقف على توفر إمكانيات موضوعية وذاتية مرتبطة به وبمن حوله.

فالحاضر العربي لا شك بأنه معتل والتراث العربي بوجه ما ،هو أحد مركبات الدواء الأساسية له ولا نقول هو الدواء، والإمكانيات متوفرة لكنها مبعثرة ومضنّاً بها عليه..!

14– الحافظ، منير، التراث في العقل الحداثي، دار الفرقد، دمشق،ط1،2001،ص117–118.

فالحاجة للتراث جد متوفرة – وقد عكست الصفحات السابقة بعض جوانبها– والهدف قائم ومتمثل بشكله النهائي في ضرورة مسايرة العصر وتحقيق مستوى من الرقي الحضاري الشامل والمناسب. كذلك فإن الإمكانيات بأنواعها موجودة فعلاً و بوفرةٍ لا بأس بها، وإن كان استثمارها الذاتي ما يزال أدنى من المستوى المطلوب.

وفق هذا المنحى لا بد إذاً من فهم دقيق للواقع وتفسير موضوعي لمظاهره، والسلبية أولاً من اجل تجاوزها ومن ثم التغيير أو التطوير نحو الأفضل ((وإذا فشلنا في الفهم والتفسير، فسوف نفشل في التغيير. وإذا عجزنا عن الإصغاء للواقع المادي والموضوعي وأمعنّا في التعامل معه من باب الاستخفاف والاحتقار والتفكير بعقل مستعار، فإننا سنصل – كما حصل في ماضينا غير البعيد – إلى حلول وأجوبة معلبة ومستعارة لمعضلات الواقع وأسئلته))[15]. وبذلك سنبقى ندور في حلقة مفرغة من المغالطات والحلول الزائفة لمشكلاتنا الملحة!

ولا شك لدينا في أن الفهم الحقيقي للواقع الذي نعيشه ونريد تطويره يشترط ضمناً وبإلحاح فهماً حقيقاً للتراثين العربي والإسلامي معاً، ذلك أن فاعليتهما واضحة المعالم في مختلف جوانب حاضرنا، خصوصاً الثقافي منها. ودليل ذلك أنه إن كانت السياسة الراهنة بمختلف مظاهرها وانعكاساتها في مجتمع ما، هي التي تمهد لظهور بعض ردات الفعل وتهيئ الظروف المناسبة لنشوء حركات مؤيدة وأخرى معارضة لها على حد سواء، فإن معالم الواقع الثقافي – خصوصاً البعد التراثي – لذلك المجتمع هي بدورها التي تحدد وبشكل رئيسي أفق وآليات ردود الأفعال تلك سواء على مستوى الإنجاز الفعلي أو على مستوى التنظير الفكري. وذلك لأنها المرجعية الإيديولوجية لغالبية تلك الحركات وخصوصاً الفاعلة جماهيرياً منها.

بناء على ذلك فإن الموقف الموضوعي من التراث العربي لا يعدُو برأينا إلا أن يكوِّن وعياً واقعيا للحاجة الفعلية له وكما يفرضها حاضر الأمة العربية أولاً، وبالتقاطع مع أهدافها على صعيد المستقبل الأفضل ثانياً.

أي أن فهم التراث أو وعيه يفترض ألا يكون في صيغة ما يجب أن يكون(مثلاً عليا) ولا في صيغته الفعلية السابقة على ظرفيتنا اليوم، أي كما كان فعلاً عندما أنجزه أسلافنا، بل يجب أن ينطلق هذا الموقف الموضوعي من حاجتنا نحن الواقعية لذلك التراث، وكما نفهمه نحن وبحدود الظرفية الخاصة بعصرنا بكل أبعادها. ليس كما فهمه السلف سواء كان منتجاً لذلك التراث أم متلقياً سابقاً علينا له، وليس كما فهمه المستشرقون أو حتى المؤرخون ممن لا ينتمون إلى عصرنا فعلاً.

وهذا التحديد وإن بدا مشكلاً أو معقداً نوعاً ما، إلا أنه ضروري لتفادي الوقوع في أزمة المواقف غير الموضوعية من التراث، من جهة. ولتفادي الفهم المقلوب أو غير المنتج له ، من جهة ثانية. أي أن لوي عنق التراث وتحويل البحث فيه عن غاياته الحقيقية ليفصح عما ليس فيه أو تحميله ما لا يحتمله أصلاً على صيغة التأويل غير الصحيح أمر لا يرتقي إلى مستوى الموضوعية فضلاً عن العلمية أصلاً، ولا يمكن أن يفي بحاجة الأمة لتراثها وإمكانية استثماره الموضوعي في صياغة نهضتها من جديد لتشغل المكانة الحضارية المناسبة بين أمم اليوم كما كانت تشغلها سابقاً..!

يقول الجابري: ((إن الشعوب لا تستعيد وعيها إلاّ في تراثها))[16]. فالماضي ممثلاً بكل حيثياته الفاعلة يفترض أن يوجه الحاضر بقدر ما ينبغي لهذا الحاضر أن يغير من الماضي استجابة لحاجة الظروف الموضوعية. وكما تقول

15– جريدة قاسيون الالكترونية، قراءة في بندلي جوزي(3)، عودة إلى التراث، 8/3/2009.

16 – الجابري، محمد عابد، نحن والتراث، معهد الإنماء العربي، الدار البيضاء،2003، ص6.

القاعدة الفقهية: ((تتغير الأحكام بتغير الأزمان)) فإن فهم حركة الواقع وبنيته شرط ضروري لكل فعل ينشد القيام بتفسير صحيح له، بغية تجاوز مشكلاته أو حلها.

لكن هل نحن اليوم حقاً سادة واقعنا، وبالتالي سادة أفعالنا ؟ أو إننا منفعلون أكثر منّا فاعلين؟!

ألسنا عاجزين وبما يخص تراثنا العربي عن التصرف تجاهه بحرية كوننا محاصرين ومن كل اتجاه؟!

إننا حقاً((محاصرون بأنماط التفكير التقليدية[والتغريبية] العقيمة، ومحاصرون بأوهامنا وأهوائنا الأنانية والطائفية والعشائرية والقطرية والشوفونية.، ومحاصرون بقيود أجهزة الإعلام والثقافة والعلم[الزائفة]، ومحاصرون بآلات القهر السياسية والاجتماعية [الرجعية – الداخلية] وبقوى التسلط الاستعماري الخارجية. وبكلمة [واحدة] نحن محاصرون من كل الجهات.!! ومشكلتنا الإستراتيجية الأولى هي فك هذا الحصار المضروب علينا)).[17]

إننا اليوم مدعوون وبإلحاحٍ مصيري للعمل الجاد بغية إزالة كل الجدر السميكة التي تعيق فاعلية الذات العربية من خلال وعي إيجابي يضمن تجاوز الحاضر بكل تشوهاته وألوانها القاتمة، نحو مستقبل أفضل. ليست الأزمة الحقيقية هي أزمة وعي أو عقلٍ أو نهج عربي وآخر غربي، كما يروق للبعض أن يقنعنا بها سعياً لإرغامنا على التسليم بجبريّةٍ مزعومة التصرف بنا أو عنّا، وبالتالي شرعنة أو تبرير القنوط من إمكانية التغير. إنها في الحقيقة – برأينا – أزمة ثقةٍ بقدرة تلك الذات على تجاوز محنتها، إنها أزمة انعدام ثقتنا بأنفسنا وشعورنا العميق بالدونية والانحسار اللاواعي للفاعلية أمام الآخر بنوعية (السلف والغرب). إن بعض مثقفينا المرموقين – لسبب أو لآخر – تراهم يقنطون من إصلاح الراهن متذرعين بكثافة ضبابيته، وبدل المساهمة الجادة في تبديدها يعملون من دون قصد – نقول ذلك بحسن نية تجاههم – على تكريس تجريد الذات العربية من كل إمكانيات الفاعلية الحضارية ومنتقدين بعض قواها الفطرية والمكتسبة على السواء، أو مراهنين بالاستناد إلى حيثيات ركود الحاضر على فشل تحقيق التغير الإيجابي فيها مستقبلاً. إلاّ وفق رؤى فاخرة العبارة قاصرة الدلالة، شمولية الأحكام لكنها صورية، فلا تسمن ولا تغني من جوع. رغم كونها تطال في توصيفها ونقدها الجريء ولكن الجائر أيضاً، بعض أبرز أبعاد الهوية الثقافية للذات العربية من تراثٍ ومعتقدٍ ومكانةٍ وعقلٍ ولغة وتاريخٍ.. وغيره!

إن منح الثقة للذات وإرغامها على إبداع الحلول المناسبة لإشكاليات الحاضر الملحة، لن يكون أبداً من خلال التشكيك بقواها أو بإمكاناتها، ولا بالتساؤل حول صلاحيتها لإنجاز دورٍ حضاري فاعل أو عدم صلاحيتها. بل يجب أن ينطلق أصلا من الاقتناع التام بصلاحية هذه الذات وبالثقة بما لديها من إمكانيات وبتحفيز قواها جميعاً، وبالعمل على إغلاق منافذ الإحباط جميعها مهما كانت مصادرها ومراميها.

إن أفضل ما يمكن للعرب اليوم وللمثقفين منهم خاصة أن يتكاتفوا لينجزوه هو ((التحرر من سطوة الفكر القدْري عليهم، وأن لا يجعلهم ركودهم الممل ضحايا الاقتناع بجبرية مطلقة في التاريخ، يطمئنون إليها لدفع البلاء عن أنفسهم))[18] لأن هذه القناعة سوف تجهض، لو استمرت بزخمها الحالي، كلّ فعل حضاري لذاتهم وتقضي على كلّ أملٍ بالرقي لديها. إنها تصنع القيود وتكبل بها ذاتها، وهذه ذروة من ذرا البؤس!!

إن وعي بؤس الحاضر العربي – وهو مما لا شك فيه – يفترض أن يحفز الذات على تجاوزه بالمزيد من العمل والمثابرة لا ترسيخه أو مجرد وصفه. ذلك لن يتم إلاّ بتفعيل كل الطاقات وتنشيط مختلف القوى ووضعها في خدمة مسعى تحقيق الطموح المشروع بإعادة النهوض من جديد. وليس بدعوتها للتنازل حتى عن ابسط جوانب كينونتها

17– جدعان ، فهمي، نظرية التراث، مرجع سبق ذكره، ص40.

18 – برقاوي، احمد، محاولة في قراءة عصر النهضة، دار الأهالي، دمشق، 1999م،ص9.

وفرادتها((فكلما استهلك العرب منتجات حضارة ما، دون أن يشاركوا في تطويرها، فإنهم في وضع أسوأ من الوضع الذي عرفوه..))[19] حتى الآن. لكن المشاركة لا تعني أبداً – ويجب ألا تعني – التضحية بالذات، لأن ذلك يعني بداهة خسران الذات (فاعلية ومشاركة) معاً، وما جدوى أن يربح ((الإنسان العالم ويخسر نفسه)) كما قال المسيح عليه السلام؟!

إن وعي التراث العربي أو إعادة اكتشافه من جديد – وفق هذه الرؤية – ليس مهماً فحسب، بل إنه ضروري وواجب معاً. ضروري من جهة العمل على استكمال النهوض الذي لن يكون تاماً ومستمراً إلاّ عبر حيثيات الخصوصية العربية واستلهام فاعلية جميع القوى الاجتماعية للأمة، على الرغم من تباين أعرافها ومعتقداتها أحياناً. لتعيد تشكيل الاتساق أو اللحمة الجماعية بين أوصالها من خلال وعي بُنى التراث العربي بكل أبعاده. وفق منهجية تمكننا مبدئياً من حفظ الجوانب الإيجابية وتفعيلها ومن رفض السلبية بأشكالها كافة، وقبل كل ذلك الاعتبار من التجارب السابقة والاستفادة من الخطأ. مع التأكيد على أن حفظ التراث لا يعني أبداً الاكتفاء به، بل هي محاولة للبحث فيه بمقدار الحاجة الراهنة. بذلك يصبح وعي التراث ضرورة حتمية تمليها ضرورة فهم آلية الصيرورة التاريخية المتنامية للمجتمع العربي بكل أطيافه. إنه وعي يرتكز مبدئياً على التسليم بأن((العودة إلى الأصول القيميّة للتراث حاجة ملحة دائماً من أجل فهم المستقبل عبر الماضي فهماً إنسانياً وأخلاقياً ومعرفياً، غايته الإنسان قبل كل شيء، ثم البحث عن فحوى تاريخه الحضاري بغية إبراز أهم منجزاته العظيمة..))[20] وآية ذلك أن هدف النشاط الإنساني على مستوى الجماعة يكاد يكون واحداً في مختلف الأزمنة شرط تكرار الظروف أو تشابهها، فالكل ينشد تحقيق خيرية الرقي الأمثل وتجاوز الظرفية المعيقة لفعل الذات حضارياً.

أما واجب وعي التراث العربي فهو من جهة الإلزام الخلقي وذلك لتحديد تميزٍ أصيلٍ لتلك الذات في تموضعها الحضاري ودورها بين الذوات الأُخر، عبر الرسالة الإنسانية التي تنطوي ثقافتها الخاصة عليها، وتستمر في توفيرها الدفء العاطفي للإنسان الذي يكاد يقضي عليه صقيع العقل وجبروت المادة ، في ظل سيادة القيم النفعية واستبدادها القاسي، إنها رسالة الشرق المقابلة لرسالة الغرب والمكملة لها..!

لكن حال الثقافة العربية اليوم بكل أبعادها ورغم وفرة الإمكانيات، مدقع في الفقر للإبداع والجدّة والأصالة، إذا ما قورن بالتراث العربي أو بالثقافات الأخرى، خصوصاً الأوربية. وسبب ذلك من وجهة نظرنا – إنما يكمن في التقليد العشوائي والترجمة والشروح، من جهة. وفي عدم الثقة بقدرة الذات على الإبداع أو في معوقات الإبداع العربي الكثيرة، من جهة أخرى.

ذلك للأسف في الوقت الذي يفترض فيه أن تكون عوامل مثل التراث والترجمة ومحاكاة النماذج..، هي الباعثة أو المحرضة على تبلور خصوصية ثقافية بديعة وحيّة، تأهل امتنا العربية لدور حضاري أفضل على الصعيد الإنساني. فالفهم المقلوب للتراث العربي ودوره الحضاري، والتضخيم اللاموضوعي لانجازات الآخر مع ما يرافقه غالباً من شعور بالنقص من قبل الذات العربية وجلدٍ ذاتي متواصلٍ لها، هو الذي – برأينا – ما يزال يحول دون انبعاث حقيقي يجاري العصر للثقافة العربية.

هذا الانبعاث الذي لن يستطيع أحد أن ينوب عن العرب في تحقيقه، لأنه ببساطة لا يتم إلاّ بجهودهم الذاتية. وهو أبداً لا يعني إحياء انجازات الماضي، لأن هذه الانجازات – رغم أصالتها – مستحيلة التكرر ولا تلبي فيما لو

19 – العروي، عبد الله، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992م،ص198.

20– الحافظ، منير ، التراث في العقل الحداثي، دار الفرقد، دمشق، ط1،2001م، ص12.

أعيدت – فرضاً – حاجات العصر، فلا يمكن ولا ينبغي أن تطابق منجزات الحاضر وحاجاته منجزات الماضي. إنما الممكن والواجب فعلاً هو العمل بكل السبل – على إحلال الثقافة العربية المعاصرة مكانة مماثلة من حيث الدرجة والدور لمكانتها في الماضي (أيام الازدهار). فالانبعاث يفترض ألا يعني سوى البحث عمّا يمكن العربية اليوم (أمة وثقافة) من استعادة ذات المركز الحضاري الذي كانت قد شغلته سابقاً.

وقد وضح احد مفكرينا المعاصرين ذلك بقوله: ((لا ينحصر الانبعاث الحضاري في إحياء التراث، وإن إنجازات الثقافة العربية الكلاسيكية تحدد طموح العرب المعاصرين، لكن الطموح شيء إضافي، منوط في آن واحد بحضارة الماضي وبحضارة اليوم. لا يعني الانبعاث سوى شيء واحد: أن تحتل الثقافة العربية المعاصرة، بين الثقافات الأخرى، نفس المركز الذي احتلته الثقافة العربية القديمة في عصور ازدهارها وتفوقها. وهذا يتطلب شروطاً ثلاثة:

1. إحياء التراث.
2. استيعاب منطق الحضارة العصرية.
3. تحقيق نبوغ يعترف به العرب وغير العرب))[21].

ما يعنينا من تلك الشروط رغم أهميتها جميعاً هو (إحياء التراث). وهذا الإحياء لا يعني بنظرنا سوى حتمية وعيه موضوعياً، وبالدرجة التي تفرضها الحاجة الملحة لتجاوز مشكلات الحاضر. فليس الهدف هو إحياء التراث فقط – ولا ندعي أن العروي قصد ذلك – إنما الهدف والمعنى هو توظيف ما يمكن من التراث(ما هو ضروري) لمصلحة الحاضر ووفق آليات تضمن جدوى هذا التوظيف مستقبلاً، وبما يخدم تحقيق إنجازات عربية متنوعة تسهم في رسم معالم فعلٍ حضاري أرقى للذات العربية على صعيد اليوم والغد. منطلقين في ذلك من يقين (منير الحافظ) عندما يقول: ((وأنا على يقين من أن التراث يمثل(الأنا) الحضاري المتنامي في عمق(الذات) المعاصرة))[22].

ونضيفُ إليه: أن التراث العربي هو – برأينا – يمثل المحتوى الفعلي للتاريخ العربي بألوانه الحقيقية (غير المزيفة) لذلك فهو يعبر صراحة وفي معظم الأحيان عن هدف ذلك التاريخ ودلالته وآفاق مستقبل أصحابه (من السابقين واللاحقين) وتطلعاتهم الحضارية. وآية ذلك، أنه وبالنسبة للمجتمع العربي على الأقل – وفق خصوصياته – لا بد وان نعترف بأن ((محتوى القبل امتداد لمحتوى البعد، وأن كل ما هو حديث يعتمد على مرجعية القديم، وأن الثابت في المرجعية متحولٌ في الإبداعية)).[23]

إن هذه العبارة رغم ما قد تثيره من اعتراضات، فإنها واقعية بالنسبة لنا، فالماضي قد يوجه الحاضر، لا بل هو في مجتمعنا العربي أحد الموجهات الرئيسية للحاضر. لكن يفترض منطقياً في هذا الحاضر أن يغير من ذلك الماضي وظيفةً لا بنيةً. وهذا شرط تفرضه حيثيات استخدام ذلك الماضي. ونعني به التراث العربي هنا – في إنجاز معطيات الحاضر وتبعاتها المستقبلية. لذلك يفترض موضوعياً ألا تقاس أهمية التراث بمعايير الرؤى والمواقف الفئوية أو النخبوية الجامدة. كما يفترض وبالدرجة ذاتها ألا يقارن التراث قيمةً بأنماط ونماذج من تراث الشعوب الأخرى ولا بإنجازاتها المعاصرة. فالمقاييس الخاطئة هي التي تفقد التراث أهميته وتنزع عن محتواه القيمة الحضارية، بمقدار ما تعزز الثقة العمياء به من قبل بعض أصحابه. مما قد يفرغ ذاكرة الأمة ويشوه خصوصية ثقافتها فيذيب هويتها ويحكم عليها بالموت أو الفناء في خدمة الغير، ولكن ما أصعب أن يكون ذلك الحكم بتقرير أو حتى بيد بعض أبنائها؟!

21– العروي، عبد الله، ثقافتنا في ضوء التاريخ، مرجع سبق ذكره،ص205.

22– الحافظ ، منير، التراث في العقل العربي، مرجع سبق ذكر، ص180.

23 – المرجع نفسه، ص10.

الاستنتاجات والتوصيات:

بدا لنا مما سبق أن التراث عموماً هو وحي التاريخ وبعدٌ أساسيٌ من إبعاد تموضع الذات الإنسانية حضارياً عبر استمرارية الزمن. إنه التعبير الوحيد تقريباً عن توفر فاعلية تلك الذات قديماً، ودليل أكيد على وفرة وجودها. لا بل إنه دليلٌ أيضاً على إمكانية استمرارية هذه الفاعلية وغنى الذات وقدرتها على مواصلة الانجاز الحضاري المبدع في مختلف المجالات والمراحل والظروف.

من هنا يكون اهتمامنا بالتراث العربي، اهتماماً بالوجود العربي ومظاهره. فمن لا تراث له يُخبر بعظمة دوره الحضاري ويؤكد جدارته وأصالته الإبداعية في خدمة الإنسانية، لن يحظى بأي تقدير، وسيكون وجوده ثانوياً وبلا فائدة.. هذا إن لم يكن عالة على غيره..!

إن استمرار اجترارنا لمواقف لا موضوعية في قضية تراثنا العربي، ذات مظاهر وألوان كثيرة لكن بمضمون واحد وبسمةٍ انفعالية مأزومة تصطنع المشكلات الزائفة ولا تواجه الحاجة الفعلية الملحة للحاضر والمستقبل العربيين وتُفصل التراث على هواها..، هو ما سيجعل ثقافتنا في موضع الاستهتار من أبنائنا والاستخفاف من أقراننا. ويبقى أمتنا في ركود حضاري يتجرع أبناؤها آلامه الفظيعة جيلاً بعد جيل.

لكن وبعيداً عن لهجة التشاؤم المقيتة، فإن ما يدعو للتفاؤل هو إعادة طرح قضية التراث العربي والإسلامي بإلحاحٍ في الفكر العربي المعاصر، وعلى مساحة واسعة. وإني التمس عذراً لكل المفكرين العرب الذين تناولوا مشكلة التراث العربي والموقف منه، أو مازالوا يجتهدون فيها فيخطئون حيناً ويصيبون آخر، ولا أعدو أن أكون واحداً منهم. منطلقاً من قول المؤرخ لورين بارتيز: ((إن أي مثقف يتقبل أوضاع مجتمعه، ويتفق معها، فإنه يكون متاجراً بمهاراته وخائناً لتراثه))[24] فقد يكون لنا عذر مشترك هو في عدم الرضا عن حاضر مجتمعنا العربي اليوم، وفي السعي الحثيث للبحث عن سُبل تجاوز آلام هذا الحاضر، ولنا حق في أن نفكر بغدٍ أفضل وإن اختلفنا في مقاييسه وتصوراته.

إن الشيء الذي يفترض ألا نختلف في ضرورته هو حاجة تراثنا العربي اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى دراسة موضوعية تحلل بنيته، وتراجع بروحٍ علمية جميع مكوناته وأشكاله، وتستنبط بمسؤولية قومية أولاً، وإنسانية ثانياً، جلَّ معانيه ودلالاته التي تخدم حاضر الأمة ومستقبلها وتفعّل رسالتها الحضارية تجاه الإنسانية. وقبل كل ذلك يفترض بتلك الدراسة، أن تتحرر من تطلعاتنا المصلحية الضيقة ومن أهواء الرؤى الافتراضية والأحكام الإيديولوجية والاعتقادية المسبقة، وأن نخرج من عباءات الطائفية والطبقية البالية. وهذه ليست متطلبات معالجة مشكلة التراث العربي فحسب، بل متطلبات ضرورية يجب أن تتوافر في كل طرح فكري موضوعي لأية مشكلة من مشكلات الفكر العربي المعاصر.

ختاماً يمكن الإقرار بأن الموقف الموضوعي من التراث العربي الذي سعى إلى توصيفه هذا البحث يهدف لإشعار المعنيين بضرورة إنجاز وعي مسؤول في تلك القضية وأن ذلك يشترط قيام دراسةٍ علميةٍ تفسر هذا التراث وتنقده وتحدثه بآنٍ واحدٍ. الأمر الذي يستدعي استنادها إلى أسس منهجية واضحة يتكامل فيها السعي القومي ذاتياً مع السعي الحضاري إنسانياً، وبشكلٍ تكاملي يخدمان بعضهما البعض فيه، دون أن يفنى ذلك الجزء أو تستلب فاعليته أو تستهلك لصالح تحقيق فاعلية آخر لا يعدو أن يكون جزءاً مثله..!

مع التأكيد على عدم كفاية التراث وحده، وعلى أن وعي التراث وفق هذه الصيغة لا يعدُو أن يكون أكثر من وسيلة سوف تستخدم لهدفٍ أبعد من ذلك، ويستند في تحققه على جملة من الوسائل الأساسية الأخرى. في مقدمتها

24- المرجع نفسه، ص8

الاستفادة من إنجازات الأمم الأخرى التي تمليها أيضاً حاجات الأمة العربية لمواكبة العصر والحداثة، وبما يتلاءم مع حركة التطور العام وخصوصاً التقدم العلمي والتقني.

كل ذلك يفترض أن يتم في مناخٍ عقلاني وعلماني حر ومسؤول، يستبعد كلَّ ما يمكن أن يحرض على بعث أي نوع من العصبية العرقية أو الطائفية أو الطبقية..، ويقوض كل أشكال الصراع الداخلي والخارجي كونها مثبطات حضارية، واستبدالها بإشكالٍ من علاقات التفاعل الحضاري والتنافس البناء من خلال تفجير طاقات الذات الكامنة وتوظيف فاعليتها المبدعة للمشاركة الجادة في توجيه تلاقح حضاري حقيقي وجاد، تتوجه الحكمة وتدفئه العاطفة وينير طريقه العقل وتقوده نحو المستقبل إرادة حرة هدفها الأول والأخير رقي الإنسان مادياً ومعنوياً وتحقيق إنسانيته على أكمل وجه.

المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. ابن منظور، لسان العرب، مادة أرث.
3. برقاوي، أحمد، محاولة في قراءة عصر النهضة، دار الأهالي، دمشق، 1999م.
4. بلال، مازن، أزمة التفكير التراثي ، الأولى للنشر والتوزيع، دمشق،ط3، 2001م.
5. الجابري، محمد عابد، نحن والتراث، معهد الإنماء العربي، الدار البيضاء،2003.
6. جريدة قاسيون الالكترونية، قراءة في بندلي جوزي(3)، عودة إلى التراث، 2009/3/8 . http://www.kassioun.org
7. جدعان، فهمي، نظرية التراث، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 1985م.
8. الحافظ، منير ، العقل التراث في الحداثي، دار الفرقد، دمشق، ط1،2001م.
9. السيد أحمد، عزت، قضايا الفكر العربي المعاصر، جامعة تشرين، اللاذقية، 2008م.
10. العروي، عبد الله، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992م.
11. الموسوعة الفلسفية، معهد الإنماء العربي، بيروت، م1، مادة ((تراث))، 1986م.
12. الموقع الالكتروني للدكتور يوسف زيدان للتراث والمخطوطات، محاضرة ((التراث العربي من التثقيف إلى المثاقفة)).7/4/ 2009 http://www.Ziedan.com/